د. عبد السلام نور الدين

المتنبي وسقوط الحضارة العربية

(١)

ازمة مناهج البحث :

حينما تناول كولنجوود تطور الفكرة التاريخية في الفكر الالماني بادئا بهودر وعمانويل كانت افسح لشيللو مكانا تماما كفخته وهيجل (وكان الشاعر شيللو هو الوريث المباشر للفيلسوف كانت في نظريته في التاريخ) .

ان شاعرية شيللو لم تسجنه في ميدان اللغة والادب ولكن جعلته شاعرا مفكرا . واذا كانت الفلسفة بتعبير هيجل هي التفكر الذي يفكر فان الشعر العظيم هو ايضا ضرب من التفكر الذي يحس . والمتنبي نموذج للشاعر المفكر او كما قيل قديما للحكيم الذي احس بازمة روح التاريخ في عصره ، ونقل هذه الازمة الى اطار المجال والفكر ، واذا كان المتنبي لا يزال سجينا بين جدران الادب فذلك لقصور مناهج البحث الادبي والدراسات العربية والتي لا ترى في الشعر أكثر من (الكلام الموزون المقفى ــ او الشعر من الشعور) ولان علم الاجتماع الادبي الذي يتناول صلة التعبير الفني بالشخصية والبنية الاجتماعية والحضارة لا يزال مستبعدا من مجال الادب العربي . ان ازمة مناهج النقد الادبي في الدراسات العربية ليست الا الصورة المصغرة للمحنة التي تعانيها مناهج الدراسات الاجتماعية بصورة عامة في العالم العربي .

ان قصيدة الشاعر تيوتس لا كريتيوس كاروس (في طبائع الاشياء) قد اهلته لان يدرس كابيقوري اصيل وكجزء من التراث الفلسفي اليوناني الروماني . والكوميديا الالهية لدانتي قد رفعته الى مصاف مفكري عصر النهضة الكبار ، اما ابو الطيب المتنبي الذي تخطى بشعره حجاج الجدل الشكلي الذي سقط فيه المتكلمون الى اكتشاف جدل الواقع والوقائع والذي عبر بدقة متناهية عن سمات بداية الخط الهابط في الحضارة الاسلامية العربية فلا يزال رهين المحبسين ــ حبس قصور الحس الادبي وحبس قصور الحس الحضاري في دراساتنا الاجتماعية .

الحلقة المفرغة في النقد الادبي العربي :

بعد تنقيب لغوي تفصيلي في استخدامات صيغ التصغير العديدة عند المتنبي ، توصل عباس محمود العقاد الى ان شغف المتنبي بالتصغير مرده الاحساس المتزايد بتضخيم الذات . الشيء الذي لم ينتبه له العقاد هو ان تضخيم الذات عند المتنبي ليس الا ظاهرة تتطلب معرفة لمضمونها دراسة اكثر عمقا ودقة .. اما بنت الشاطىء فقد اقترحت حذف اشعار المدح للمتنبي من مناهج تدريس الادب اذ ليس من المفيد في شيء تغذية الناشئة بالملق والنفاق .. وعلي الجارم قد تأكد لديه ان ، دوافع الطموح عند المتنبي ذات طابع شخصي صرف اذ كان يروم ملكا فانخذل .... اما طه حسين ــ فقد الف كتابا ضخما في كشف عورات المتنبي اللغوية والفنية وعقده الشخصية . ان معظم ما قيل عن المتنبي لا يخرج من دائرة الشتائم التي سددها ابو فراس اليه ، واذا كنا نريد ان نتعرف على مبلغ ما قطعه النقد الادبي والتاريخي في الدراسات العربية منذ عصر المتنبي حتى عصر طه حسين فلنر التطابق بين مضمون الاراء السالفة الذكر في مدرسة النقد الادبي وما اورده ابن الدهان .

(قال ابن الدهان في المآخذ الكندية من المعاني الطائية ان ابا فراس بن حمدان قال لسيف الدولة ان هذا المتشدق ــ يعني المتنبي ــ كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره ــ فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه، وكان المتنبي غائبا فبلغته القصة ، ولما حضر دخل على سيف الدولة وانشده هذه الابيات . قال : فاطرق سيف الدولة

ولم ينظر اليه كعادته وحضر ابو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي وانقطع ابو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التي أولها : واحرّ قلباه ممن قلبه شبم . ثم جاء وانشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه بقوله :

مالي اكتم حبا قد يرى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الامم

الى ان قال :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة اذلاله واعراض سيف الدولة عنه ، فلما وصل الى قوله:

يا اعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم

قال ابو فراس : قد مسخت قول دعبل :

ولست ارجو انتصافا منك ما ذرفت
عيني دموعا وانت الخصم والحكم

قال المتنبي :

اعيدها نظرات منك صادقة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم ابو فراس انه يعنيه فقال : ومن أنت يا دعي كندة حتى تأخذ اعراض الامير في مجلسه ، فاستمر المتنبي في انشاده ولم يرد عليه الى ان قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
باني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك ابا فراس غيظا وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد حيث يقول :

اوضحت من طرق الاداب ما اشتكلت
دهرا واظهرت اغرابا وابداعا
حتى فتحت باعجاز خصصت به
للعمي والصم ابصارا واسماعا

ولما انتهى الى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال ابو فراس : وماذا ابقيت للامير اذا وصفت نفسك بكل هذا تمدح الامير بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الامير ، اما سرقت هذا من الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العربان العثماني :

انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى
وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال المتنبي :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

فقال ابو فراس : وهذا اخذته من قول بشار :

اذا رضيتم بان يجفى وسركم
قول الوشاة فلا شكوى ولاضجر

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قال ابو فراس واعجبه بيت المتنبي ، ورضي عنه في الحال ، وادناه اليه وقبل رأسه واجازه بالف دينار ،ثم اردفهما بالف اخرى).

ان طه حسين وبنت الشاطىء والعقاد لم يذهبوا ابعد من أن حملوا مقدمات ابي فراس الى نتائجها المنطقية وهذا هو القدر التاريخي الذي تعرض له الفكر التاريخي في الفكر العربي المعاصر .

(٢)

المتنبي وانحدار الحضارة العربية

ان الاحساس الدقيق باتجاهات الزمان عند المفكر او الفنان هو الذي يكسب الفكر قيمة تاريخية او جمالية على مدى توالي العصور . ان جمهورية افلاطون « فوق ما تضمنت من جدل وحوار ونظرية في السياسة والمعرفة وخلود النفس» هي الاحساس المكثف بان ربيع الحضارة اليونانية قد ولى ، والنبرة الاستبدادية الافلاطونية المدثرة في طيات الحوار الهادىء هي محاولة لانقاذ اثينا في الخيال ـ في عالم ما وراء الحواس ـ هي المقاومة اليونانية للانحدار الذي انزلقت فيه الحضارة . هذه المقاومة التي اخذت طابع الفكر الفلسفي الخالص كانت تجسد كل ثراء الحضارة اليونانية وفقرها : عقلانيتها وتصوفها وتفاؤلها النظري في صورة اليوتوبيا وتشاؤمها الفعلي من جراء الانهزام امام اسبرطة ، وتهدم مقومات وجودها . وقد برهن التاريخ اللاحق للحضارة اليونانية ان افلاطون كان محقا في اكتئابه اذ قفزت مقدونية على اثينا وجعلتها نهبا للفوضى والتمزق واضحت في موقف ترحب فيه بالخرافات والاساطير ،التي جاهدت من قبل ربيعها لتتخلص منها .

ان العقلانية اليونانية قد تفسخت وانقلبت على نفسها في صورة الشك العقيم والكلبية والرواقية والافلاطونية المحدثة ، وسقطت في حب الغنوصية والتصوف ـ وهكذا فان افلاطون هو التجسيد والاستسلام والمقاومة لازمة الحضارة اليونانية في صورة الفكر الفلسفي الخالص ومن هنا تتضح قيمته التاريخية والمتنبي في مجال الشعر العربي كان يجسد ايضا التجسيد والاستسلام والمقاومة لانحدار الحضارة العربية .

اذا بت الحضارة العربية الاسلامية كل خيرات

الانسان السامي والفارسي واليوناني والروماني في خلق جديد مبتكر .. فتحت امام العقل البشري نوافذ جديدة للاطلال . ادخلت الحضارة الاسلامية العربية فكرة لم يطرقها الفكر الفلسفي من قبل عبر عنها المعتزلة – بان التاريخ من صنع الارادة البشرية «الانسان خالق لافعاله »، « الحرية الانسانية لا تضاد المشيئة الالهية » وان العقل البشري عن طريق الفعل الحسي القادر على تمييز الحق من الباطل – الخير من الشر : « القبيح في ذاته والحسن في ذاته » .

جاهد عقل الحضارة الاسلامية في صورة مدرسة الحكمة الابدية ان يجد حلولا عقلانية للمعضلات العملية التي تبدت في صورة التحدي الحضاري – صراع القوميات داخل الاسلام والعروبة – فطرحت مدرسة الحكمة الابدية ان العقل الانساني في كل الشعوب والحضارات ذو طبيعة مشتركة وهو في ذات الوقت في تقدم مستمر .

واجه المجتمع الاسلامي تحدي العصبية والقومية والتفاوت في الكسب والمعاش ومعضلة الحكم باستجابة حاول ان يكون فيها ايجابيا .

طرح القرن الاول الهجري مسألة الحكم وكيف يقوم ، اعلى اساس الشورى ام النص والتعيين ام الفقرة الحربية « الفتنة الكبرى – حرب الجمل – صفين – التحكيم » .

طرح القرن الثاني قضية المساواة بين الشعوب الاسلامية وانهاء الحكم القائم على العصبية « انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

طرح القرن الثالث قضية الالفة والعدل الاجتماعي « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم الائمة ونجعلهم الوارثين ».

وقفت الحضارة الاسلامية في القرن الرابع في مفترق الطرق ، تحمل كل قدرات النهوض والاقلاع وقد كان المجرى معدا اذ فتح العصر العباسي الاول كل ابواب الامل – امل التغلب على التحديات ، ولما كان الاقلاع الحضاري ممكنا ومتوقعا فقد كان الطموح للفرد العربي المسلم شرعيا وطبيعيا الا ان الضرورة التي تكشفت في صورة الصدفة قد كانت بدلا من تقلع الحضارة العربية الاسلامية فقد سقطت في مجراها مما ادى بالعقلانية ان ترتد الى التصوف ، فتحول الثوار القرامطة الذين بشروا بنظام الالفة والعدل الاجتماعي الى لصوص وقطاع طرق ، وبدلا من ان يلغي ثوار الموصل نظام القنانة استرقوا اعداءهم ، فتبدت اللحظة التاريخية وكأنها تنقض على نفسها وتتنكس على ذاتها ويتحول الاقلاع في الزمان الى انفجار في المكان . وفي حياة المجتمع المسلم اليومية تحول الطموح الى شراهة حسية لا نظير لها ، وانشق حب النفس الطبيعي الى شريحتين متناحرتين : الى جبن خسيس او تهور مطلق . البحث عن الوجود الانساني قد تحول اما الى افناء الذات وهلاكها او فناء ذوات الاخرين واهلاكهم ، وما اصاب اليونانيين بعد تفكك امبراطورية الاسكندر الاكبر اصاب الحضارة الاسلامية في العصر العباسي الثاني . هذا الزلزال الحضاري المريع الذي اصاب البنية الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والروحية عبر عن نفسه في شعر المتنبي :

أذم الى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عم
واسهدهم فهد واشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد

او

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت
على عينه حتى يرى صدقها كذبا
ارى كلنا يبغي الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس اورده البقا
وحب الشجاع النفس اورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد
الى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا

ان العناصر الذاتية في شخصية المتنبي اخذت لحمتها من نسيج البنية الموضوعية لعمره – العصر الذي كان مقدرا له ان يقلع فسقط فانتقل الشرخ الحضاري الى روح المتنبي . ان الاحساس المريع بسقوط زمانه يلون كل شعره .

ومن لم يعشق الدنيا قديما
ولكن لا سبيل الى الوصال
اتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم واتيناه على الهرم

ان الشرخ الذي اصاب الحضارة العربية فجأة قد عبر عنه المتنبي بنبرة قاسية – ان ولع المتنبي بتصوير المظاهر المتغيرة التي يتخذها الزمان والدهر والدنيا جعلته يطارد المفارقات في تقلباتها المتعددة ثم ان احساسه البشع بانه يحاول عبثا تغيير اتجاه الرياح قد دفع الى نفسه الاحباط واليأس الذي يصل حدا يتخذ فيه ثوب الثورة كاخر محاولة للدفاع عن النفس لم يكن عجز المتنبي قاصرا على محدودية الفعل ولكنه العجز المطلق ازاء اعادة الشباب الى الزمان الهرم – ان قانون العصر الذي عاشه هو الانهيار .

فالموت آت والنفوس نفائس
والمستفرّ بما لديه الاحمق

يتجاوز المتنبي في مأساته اس الهموم والصفائر الى مرحلة القلق الميتافيزيقي والاحساس بالعبث ـ اذ ليس ثمة عزاء حقيقي او طايب ما دام يعلم انه يطالب زمانه بالعسر والمستحيل والمحال :

بم التعلل لا اهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن
اريد من زمني ذا ان يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك الا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يديم سرور ما سررت به
ولا يرد عليك الفائت الحزن

(٣)

وصف هيجل عمانويل كانت بانه عاجز لانه يطلب المستحيل وبالتالي لا ينتهي الى اي شيء واقعي ـ ان هذا الوصف يصدق ايضا على المتنبي الذي يعي بعمق انه يطلب من الزمان المحال .

اريد من زمني ذا ان يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

هذا الطلب الذي يتخطى قدرات الزمن لا يمكن تبسيطه بطلب الامارة كما قال الجارم ـ او تعويض لوضاعة الاصل كما حدد طه حسين ـ ان الداء الذي اصاب المتنبي هو الرؤية بعين التاريخ ان الرياح « تجري بما لا تشتهي السفن » ـ والسفن هنا هي الحضارة العربية ... ان الوعي بالعجز التاريخي يجعله يهرب من الاطايب والملذات التي يعلم يقينا انها الجريمة السابقة للموت . وهكذا اصبح قدره ان يتمرغ في العذاب الميتافيزيقي ـ يجاهد الزمان وهو يعلم انه المهزوم ويبارز المحال ـ حتى تولدت لديه حاسة ميتافيزيقية ـ هي الهروب من السكون والدعة : والركون الى حيث الصراع والقتال .

يقول بشعب بوّان حصاني اعن هذا يسار الى الطعان؟
ابوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان .

الخرطوم

صدر حديثا

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني
(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق
(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق
(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس
في جزئين :
اقاصيص اولى
اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب